بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 23 أبريل 2018

آيــة السيــف
في الإبستيميَّة القرآنيَّة القديمة

المنجي الأسود
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

آية السيف في الإبستيميَّة القرآنيَّة القديمة[1]

1- ألقيت هذه الورقة في ندوة: "الجهاد في الإسلام: معترك التأويل والتوظيف"، المنعقدة تونس: 01 - 02 ماي/ مايو 2017، تنسيق: د. بسام الجمل ود. أنس الطريقي. مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.

الملخّص:

تروم هذه الورقة البحثيّة الكشف عن كيفيّة تعامل القدامى مع ما اصطلح على تسميته بآية/ آيات السّيف (التوبة 5/9) في علوم القرآن، من حيث محوريّة هذا النّص في التّأصيل لفعل الجهاد وتصنيف الأطراف المعنيّة به استناداً إلى علاقاته التشابكيّة والتناصّية مع نصوص قرآنيَّة أخرى، ومن حيث علاقة هذا النّصّ القرآنيّ بعلوم القرآن، وما يطرحه ذلك التّعامل من إشكالات وحلول لتلك الإشكالات قديماً وحديثاً. ولعلّ ذلك يفرض علينا أن نتتبّع نصّ آية/ آيات السّيف تتبّعاً تاريخيّاً لمختلف ما أنتج من نصوص ثوانٍ حول هذا النّصّ المؤسّس. فمن شأن ذلك التتبّع أن يساعدنا على تخليص النّصّ المؤسّس من ترسّبات تلك الذّهنيّة المنتجة لمفهوم السّيف الرمزي العابر للأزمنة ثمّ إعادة تنزيله في بيئته الثّقافيّة المنتجة له. على أنَّ تفكيك كلّ تجمُّع نصّيّ على النّصّ النّواة كفيل بفهم العقليّة المنتجة لمقولة الجهاد اليوم وتحليلها تحليلاً يساهم في تعريتها ممَّا أحاط بها من قداسة تكوّنت بفعل التّراكم التّاريخيّ.

تمهيد:

قد لا نبالغ إذا اعتبرنا آية السّيف أهمّ نصّ تشريعيّ استند إليه القدامى لتأسيس مفهوم الجهاد بمختلف أبعاده الأخلاقيّة والدّينيّة والسّياسيّة، بل ببعده الأشمل الذي تتجسّد فيه رؤية المشتغلين بعلوم القرآن للعالم والوجود، فتجلّى معترك التّأويل والتّوظيف في هذا المفهوم أيّما تجلٍّ، وكانت أدبيّات علوم القرآن ناطقة بهذا المعترك، معبّرة عن صراع تلك الأبعاد، أنتجت في النّهاية ما يمكن اعتباره، بعبارة علم الاجتماع، الوعي الجمعيّ الذي يمكن أن نكشف أهمّ خصائصه المميّزة له من خلال تتبّع حضور آية السّيف في الإبستيميّة القرآنيّة القديمة تتبّعاً قائماً على مراحل ثلاث هي: تعريف آية السّيف أوّلاً، والنّظر في مركزيتها من زاوية أشكال حضورها في علوم القرآن ثانياً، لنخلص ثالثاً إلى الوقوف على أهمّ سمات تلك الذّات الجمعيَّة التي عملت على إقرار مفهوم للجهاد قائم على السّيف منذ ظهور النّقاشات الأولى حول هذه الآية.

أولاً: آية السّيف، أم آيات أسياف، أم سورة سيف؟

يقف مطالع أدبيّات علوم القرآن على تسميات مختلفة تعلّقت بعدد من الآيات القرآنيَّة دون غيرها، لعلّ أهمّها آية السّيف [التوبة 5/9][1] وآية الجزية [التوبة 29/9] وآية القتال [التوبة 36/9]. وهي آيات وردت كلّها في سورة التّوبة9، تلك السّورة التي استقرّت في شأنها صورة نمطيّة في الذّهنيّة المشتغلة بعلوم القرآن مؤسَّسَة على عنصرين مهمّين هما: سياق النّزول والتّسمية. أمّا سياق النّزول فتبرز السّورة فيه باعتبارها السّورة الوحيدة التي نزلت بالسّيف فغابت البسملة عن مفتتحها، إذ يكفي أن نراجع الأخبار المتعلّقة بوجود البسملة من عدمه في سورة التوبة9 وتطوّر تلك الأخبار إلى درجة خروجها من الحديث عمّا هو تأريخ لما يمكن أن يكون قد وقع من تفاصيل ساهمت في عدم تدوينها في مفتتح السّورة إلى الحديث عن تبرير غيابها تبريراً عائداً إلى الوحي[2]، حتّى نقف على حجم الإحراجات الحضاريّة المتعلّقة بحدث تدوين المصحف عموماً[3] والرّغبة الجامحة في إخراج سورة التوبة 9 في صورة متعاظمة، تلك الصّورة التي فتكت بكلّ شيء، حتّى وإن كان هذا الفتك منافياً لأهمّ القيم الإنسانيّة التي قامت عليها الرّسالة المحمّديّة.

1- عقد الباحث عبد الباسط قمّودي في أطروحته النّاسخ والمنسوخ علماً من علوم القرآن عنصراً مهمّاً لتقليب التّفاسير المتعلّقة بآية السّيف يحسن الرّجوع إليها، خصوصاً وأنّها تتناسق مع بعض الأطروحات التي تذهب إلى أنّ القتل المراد في الآية هو قتل معنويّ. انظر في هذا الصدد: عبد الباسط قمّودي، النّاسخ والمنسوخ علماً من علوم القرآن، أطروحة دكتوراه مرقونة بكليّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة بسوسة ـ تونس 2014. ص258. وانظر أيضاً: René Guénon, Symboles de la Science Sacrée Sayful-Islam: Publié dans les Cahiers du Sud, numéro spécial 1947: L'Islam et l'Occident) , Recueil posthume, p134-137.، حيث بيّن أنّ ثقافة السيف ليست سمة مرتبطة بالإسلام فقط بل تكاد تكون من الخصائص المشتركة لأهم الديانات.

2- انظر في هذا الصدد: المصحف وقراءاته، تأليف مجموعة من الباحثين بإشراف عبد المجيد الشرفي، ط1، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، المغرب، 2016، ج2، ص 38.

3- المرجع السابق، ج2، ص 38.

وأمّا التّسمية فتطالعنا أدبيّات علوم القرآن بأسماء عديدة تجاوزت اثني عشر اسماً، منها: المقشقشة والمبعثرة والمشرِّدة والمخزية والفاضحة والمثيرة والحافرة والمنكِّلة والمدمدمة وسورة العذاب والبَحوث والمنقّرة. وهما عنصران متناغمان تناغماً بوّأ السّورة إلى اعتبارها سورة الأسياف الثلاثة من جملة أربعة أسياف ذكرت في نصّ المصحف كلّه. ذكر ذلك في خبر ورد في صيغتين:

- الصّيغة الأولى: «**قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعَةِ أَسْيَافٍ: سَيْفٌ فِي الْمُشْرِكِينَ من العرب، قال الله تعالى: (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)** [التوبة 5/9][4]»

- الصّيغة الثانية: «**قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعَةِ أَسْيَافٍ سَيْفٍ في المشركين من العرب، قال الله تعالى: (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)** [التوبة 5/9]، **هَكَذَا رَوَاهُ مُخْتَصَرًا، وَأَظُنُّ أَنَّ السَّيْفَ الثَّانِيَ هو قتال أهل الكتاب لقوله تَعَالَى: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)** [التوبة 9/ 29] **وَالسَّيْفُ الثَّالِثُ قِتَالُ الْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِ: (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ)** [التوبة 9/ 73] و[التحريم 66 /9]، **وَالرَّابِعُ قِتَالُ الْبَاغِينَ فِي قَوْلِهِ: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)** [الحجرات 9/49].[5]

وبالعودة إلى أهمّيّة هذا الخبر يتأكّد لنا أمران: أوّلهما أنَّ صورة سورة التوبة9 القائمة على السّيف ما فتئت تتضخّم بفعل توجّه العقل الجمعيّ نحو التّشدّد على اعتبار أنَّه صار يعتبر الجهاد ما لا يقوم الدّين إلا به. وثانيهما أنَّ الأخبار المعتمدة في بناء هذه الصّورة المتضخّمة ليست سوى أخبار ثوانٍ ظهرت في فترة متأخّرة جدّاً عن فترة جمع القرآن في نصّ المصحف، وما شاب ذلك الجمع من اختلاف الجامعين حول علاقة التوبة 9 بالأنفال 8. وما يؤكد هذا الأمر هو أنَّ الخبر المذكور أعلاه منسوباً إلى عليّ بن أبي طالب لا وجود له في كتب علوم القرآن الشّيعيّة وخصوصاً منها التّفاسير.

4ـ عبد الرحمن بن محمَّد بن أبي حاتم (تـ 327هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق أسعد محمَّد الطيب، ط3، مكتبة نزار مصطفى الباز ـ المملكة العربيَّة السعوديَّة، 1419 هـ، ج6، ص 1752.

5ـ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (تـ 774هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق محمَّد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلميَّة، منشورات محمَّد علي بيضون ـ بيروت، 1419 هـ، ج4، ص 99.

ثانياً: مركزيَّة آية السّيف(6) ضمن الآيات الأخرى:

يظهر من خلال ما تقدّم أنَّ الآيات التي اقترنت تسميتها بالسّيف متعدّدة وحضورها في أدبيّات علوم القرآن كان متفاوت الأهمّيَّة، لذلك رأينا أن نعرض لكلّ آية ما تعلّق بها من زاوية التّسمية والنّسخ وأسباب النّزول والتّكرار والقراءة المخالفة والحكم الفقهيّ الذي نصّت عليه:

- **آية السّيف الأولى**: هي الآية الخامسة من سورة التّوبة 9 **(فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)** تسمّى آية السّيف[7]، نسخت آية 144[8] ولم يذكر فيها سبب نزول، تكرّر القتل فيها مرتبطاً بالمشركين في الآية السّادسة والثلاثين من سورة التوبة 9. أمَّا القراءة المخالفة فقد ارتبطت بفعل **(وَاحْصُرُوهُمْ)** الذي قرأه ابن عباس «**وحاصِروهم**»[9]، وقد دلّت على الأمر بقتال المشركين بشرط اِنسلاخ الأشهر الحرم.

- **آية السّيف الثانية**: هي الآية التّاسعة والعشرون من سورة التّوبة 9، ونصّها **(قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)**، وتسمّى آية الجزية، نسخت آيات عدّة لعلّ أهمّها الآيتان 34 و35 من سورة الأنفال 8[10] والآية السّادسة والأربعون من سورة العنكبوت 29.[11] بل اعتبرها أبو جعفر النحّاس ناسخة لآية السّيف [التوبة 5/9].[12] وقد تعلّق بها من جهة النّزول ثلاثة أسباب: أوّلها أرجع نزولها إلى حدث **خروج المشركين من مكّة فشقّ ذلك على المسلمين لأنّهم كانوا يصيبون منهم تجارة**.

6- اختلف البعض في تحديد الآية التي تسمّى آية السيف، وقد وقفنا على خلط واضح في بعض المراجع الشّيعيَّة، فقد اعتبر محمَّد باقر الحكيم أنّ آية السّيف هي الآية السّادسة والثلاثون من سورة التوبة9، بينما أورد المجلسي في **بحار الأنوار** أنّ آية السّيف هي الآية الخامسة من السّورة نفسها، أمَّا الموسوي الخوئي فقد ذهب إلى أنَّها الآية التّاسعة والعشرون من السورة نفسها. انظر: محمَّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، ط2، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، 1983، ج65، ص 326. أبو القاسم الموسوي الخوئي، **البيان في تفسير القرآن**، ط4، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، 1975، ص 288. محمَّد باقر الحكيم، **علوم القرآن**، ط3، مجمع الفكر الإسلامي، قم، 1417 هـ، ص 207.

7- يحتاج مصطلح آية السّيف إلى بحث تاريخي من حيث أوّل من استعمله في التفسير وفي علوم القرآن. وبالرّغم من أنّنا لا نثق كثيراً ببعض كتب التفسير، فإنَّ هذا المصطلح لم يوجد في مصنفات الحديث الأولى التي كان التفسير فرعاً من فروعها، فضلاً عن كتب التفسير الأولى مثل تفسير عبد الرزاق الصنعاني (تـ 211هـ) وتفسير الطبري (تـ 310هـ)، ونستثني هنا كلّ تفسير منسوب ظهوره إلى أحد أعلام القرن الأوّل للهجرة وخصوصاً النّصف الأوّل منه، مثل تفسير مقاتل الذي ذكر آية السّيف بهذه التسمية وذكر المحقق أنَّ مقاتلاً ذكر أنّها نسخت آية 16. انظر في هذا الصدد: مقاتل بن سليمان (تـ 150هـ)، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق عبد الله محمود شحاته، ط1، دار إحياء التراث - بيروت، 1423 هـ.ج5، ص 162 وما يليها.

8- اعتمدنا في تتبع المنسوخ بآية السيف المعطيات المتوفّرة في كتاب المصحف وقراءاته كلّما وقفنا على ذلك. والرأي الشائع في هذا الصدد أنّها نسخت آية 124، المصدر السابق، ج5، ص 162 وما يليها.

9- أبو حيان الأندلسي، محمَّد بن يوسف (تـ745هـ)، **تفسير البحر المحيط**، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 2001، ج5، ص 12.

10- محمَّد بن مسلم بن عبد الله بن شِهَاب الزهري (تـ 124هـ)، **الناسخ والمنسوخ**، تحقيق حاتم صالح الضامن، ط3، مؤسسة الرسالة، 1998، ص 27-28.

11- مؤلف مجهول، كتاب المباني في نظم المعاني ضمن مقدّمتين في علوم القرآن، تحقيق آرثر جيفري، ط2، القاهرة، 1972، ص36.

12- أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمَّد (تـ 338هـ)، **الناسخ والمنسوخ**، تحقيق محمَّد عبد السلام محمَّد، ط1، مكتبة الفلاح - الكويت، 1408هـ، ص 500.

[13] وثانيها أنَّ الآية نزلت **حين أمر النبيّ بغزو الرّوم، وغزا بعد نزولها تبوك**. وثالثها أنَّها **نزلت في قريظة والنّضير**.[14] والقتال المذكور فيها ورد مقترناً بالذين لا يؤمنون في هذه الآية وفي الآية 123 من سورة التوبة 9. ولم يُذكر في هذه الآية قراءات مخالفة.

● **آية السيف الثالثة**: هي الآية السّادسة والثّلاثون من سورة التّوبة 9، ونصّها: **(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)**، تُسمّى آية القتال، ورد فيها رأيان ضدّان في النّسخ: الأوّل ذكر أنَّها **منسوخة بفرض القتال في كلّ زمن**.[15] والرّأي الثّاني رأى أنَّ الآية ناسخة للآية 217 من سورة البقرة 2، أي أنَّها نسخت القتال في الأشهر الحرم.[16] لم تقترن بها قراءة مخالفة مؤثّرة في حكم القتال، وقد اعتبرها ابن عاشور ناسخة لحكم الأمر بـ: **قتال الدفاع**[17]، أي أنَّها مشرّعة للقتال مطلقاً.

● **آية السّيف الرّابعة**: هي الآية الثالثة والسّبعون من سورة التوبة 9، ونصّها: **(يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)**، لم يذكر فيها غير ما أورده القرطبي من كونها **نسخت كلّ شيء من العفو والصّلح والصّفح**.[18] وهي آية تكرّر نصُّها بأكمله في الآية التّاسعة من سورة التحريم. 49 ارتبطت بفعل «**اغلظ**» قراءة لهجيّة نسبت إلى ابن عباس.[19] وتضمّنت حكم جهاد الكفّار والمنافقين.

● **آية السّيف الخامسة**: هي الآية الثّالثة والعشرون بعد المئة من سورة التوبة 9، ونصّها: **(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)**، لم يذكر فيها

13- محمَّد بن جرير أبو جعفر الطبري (تـ 310هـ)، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق أحمد محمَّد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة، 2000، ج14، ص 195.

14- أبو حيّان، تفسير البحر المحيط، ج5، ص 30.

15- ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي(تـ542هـ)، **المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلميّة، لبنان، 1993. ج6، ص 483.

16- جلال الدين السيوطي (تـ 911هـ)، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1974، ج3، ص 73.

17- محمَّد الطاهر بن عاشور (تـ 1393هـ)، **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**، الدار التونسيَّة للنشر ـ تونس، 1984 هـ، ج2، ص 200.

18- أبو عبد الله محمَّد بن أحمد شمس الدين القرطبي (تـ 671هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، 1964، ج8، ص 205.

19- A. Jeffery, **Materials, for the history of the text of the Qur'an, the old codices**. Leiden 1937. P.199.

سوى أنَّها **منسوخة بآية القتال**[20]، وقراءة مخالفة متعلّقة بلفظ «غِلْظَةً» ليس له كبير تأثير على معنى الأمر بالقتال الذي تضمنّه حكم الآية.[21]

● **آية السّيف السّادسة**: هي الآية التّاسعة من سورة الحجرات 49، ونصّها: **(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)**، لم يرد فيها نسخ ولا تكرار، بل تعلّق بها سببًا نزول ارتبطا بحادثتين متشابهتين من حيث المضمون تمثّل في خصومة بين طرفين مسلمين وتدخّل الرّسول لحلّ تلك الخصومة.[22] كما تضمّنت قراءة مخالفة للفظ «**اقْتَتَلُوا**» ولفظ «**تَفِيءَ**».[23] وهي قراءة ليس لها تأثير يذكر على الحكم العام للآية وهو جهاد الفئة الباغية.

● **آية السّيف السّابعة**: هي الآية التّاسعة من سورة التحريم 66، ونصّها: **(يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)**، وهو النّصّ ذاته الذي ورد في الآية الثّالثة والسّبعين من سورة التّوبة 9، واللافت للانتباه في هذه الآية أنَّه تعلّقت بها قراءة مخالفة لم تظهر في نصّ الآية التي شاركتها في الصياغة، ومضمون هذه القراءة «**جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ**»، أي أنَّ حكم الجهاد موجّه فقط ضدّ الكفار، أمّا المنافقون فهم وسيلة يستعين بها الرّسول لتحقيق ذلك الجهاد. وبيّنٌ من مصدر هذه القراءة أنَّها تحمل عقيدة شيعيَّة تضع في الاعتبار بعض الصحابة الذين يقاتلون معه ضمن المنافقين.[24]

يظهر من خلال ما تقدّم إذن أنَّ أهمّ مشاغل علوم القرآن حاضرة حضوراً متفاوت الأهمّيَّة في كلّ آية من الآيات سابقة الذّكر، ويظهر التفاوت أيضاً عند المقارنة بين مدى حضور هذه الشواغل في كلّ آية. ويمكن أن نجلّي ذلك في الجدول التلخيصيّ التّالي:

20- فخر الدين الرازي (تـ 606هـ)، تفسير مفاتيح الغيب، ط3، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، 1420 هـ، ج 16، ص 172.

21- انظر: المصحف وقراءاته، ج2، ص 91.

22- ذكر الفرّاء أنَّ الآية نزلت في رهط عَبْد اللَّه بْن أبي، ورَهط عَبْد اللَّه بْن رواحة الأنْصَاريّ، فمرّ رَسُول اللَّه صَلَّى الله عليه ـ عَلى حِمار فوقف عَلى عَبْد اللَّه بْن أبي في مجلس قومه، فراث حمار رَسُول اللَّه، فوضع عَبْد اللَّه يده عَلى أنفه وَقال: إليك حمارك فقد آذاني، فَقَالَ لَهُ ابْنُ رواحة: أَلِحمار رَسُول اللَّه تَقُولُ هَذَا؟ فو الله لهو أطيب عِرضاً منك وَمن أبيك، فغضب قوم هَذَا، وَقوم هَذَا، حَتَّى اقتتلوا بالأيدي وَالنعال، فنزلت هذه الآية. أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (تـ 207هـ)، معاني القرآن، تحقيق جماعي، ط1، الدار المصريَّة للتأليف والترجمة، مصر، د.ت، ج3، ص 71. وعن السدّي أنّ امرأة من الأنصار يقال لها أمّ زيد، كان بينها وبين زوجها شيء، فجاء قومها، وجاء قومه فاقتتلوا بالأيدي والنعال، فبلغ ذلك النبيّ، فجاء ليصلح بينهم، فنزلت الآية. الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج22، ص 294.

23- انظر: المصحف وقراءاته، ج4، ص 49.

24- علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، تحقيق طيب الموسوي الجزائري، ط3، دار الكتاب للطباعة والنشر، قم ـ إيران، 1404 هـ. ج1، ص 301.

الآية	التسمية	النسخ	سبب النزول	القراءة	التكرار*	الحكم في القراءة الرسميَّة
التوبة9/5	آية السيف	+	-	+	+	جهاد المشركين
التوبة9/29	آية الجزية	+	+	-	+	جهاد المشركين
التوبة9/36	آية القتال	+	-	-	+	جهاد المشركين
التوبة9/73	-	+	-	+	+	جهاد الكفار والمنافقين
التوبة9/123	-	+	-	+	+	جهاد الكفار
الحجرات9/49	-	+	+	+	-	جهاد البغاة من المسلمين
التحريم9/66	-	-	-	+	+	جهاد الكفار والمنافقين

يلخّص الجدول ما أوردناه من معطيات متعلّقة بشواغل علوم القرآن بآيات السّيف السّبع. وهي معطيات متفاوتة الحضور تفاوتاً يمكن تجليته من جهتين: من جهة مقارنة تلك المعطيات ببعضها بعضاً من حيث حضورها في الجدول كلّه، ومن جهة مقارنتها ببعضها بعضاً في الآية الواحدة. فيظهر أوّلاً أنَّ أكثر الشّواغل حضوراً هو النّسخ، يليه التّكرار، ثم القراءات. أمَّا أسباب النّزول فقد كان حضورها خافتاً جدّاً. وهو أمر مستغرب بالنّظر في طبيعة الآيات وما تشرّعه من أفعال قتاليّة لها قيمة بالغة في تحديد طبيعة العلاقة بالآخر ـ مسلماً كان أو غير مسلم ـ تحديداً تشريعيّاً كما يراه المشتغلون بعلوم القرآن. وهي علاقة صار يحكمها السّيف بعد أن كانت لا يتنزّل ضمنها أيّ شكل من أشكال العنف.[25] فما هي دلالة غياب أسباب النّزول في الآيات 29 و36 و73 و123 من سورة التوبة 9 والآية 9 من سورة الحجرات 49 والآية 9 من سورة التحريم 66؟

إنَّ هذا التساؤل يجد مشروعيّته بالاستناد إلى الإبستيميَّة القرآنيَّة ذاتها، إذ يتعذّر(...) **فهم الأحكام المستفادة من النّسخ إلا بتبيّن أسباب نزول الآيات الموافقة لتلك الأحكام.**[26] وقد جلّى بسّام الجمل هذه العلاقة بين هذين المبحثين في ثلاثة محاور هي: **الاستدلال بأسباب النّزول لإثبات النّسخ، والاستدلال بأسباب النّزول لنقض النّسخ، ثم النّسخ وتاريخ النّزول.**[27]

*- نقصد بالقراءة والتكرار ما تعلق في هذا الصدد بالأفعال التي تمارس باعتبارها شكلاً من أشكال الجهاد وبالفئة التي تمارس عليها تلك الأفعال.

25- نشير هنا باختصار إلى المشترك في آيات السّيف أنَّها نسخت كلّ آية فيها موادعة، انظر لاحقاً آية السيف والنسخ.

26- بسام الجمل، أسباب النزول، ط1، المركز الثقافي العربي - المؤسّسة العربيَّة للتحديث الفكري، بيروت - الدار البيضاء، 2005، ص 267.

27- بسام الجمل، أسباب النزول، ص 268. وهذه الآيات هي من الآيات الكثيرة التي لم يعثر فيها بسام الجمل على استناد القدامى إلى أسباب النزول لبيان أنَّ الآيات المتعلقة بها ناسخة لآيات أخرى. المرجع نفسه، ص 273.

وبالرّغم من أنَّ القراءات كانت أكثر حضوراً من أسباب النّزول، فإنَّ هذا الحضور لم يكن مؤثّراً في المعنى الذي دلّت عليه آيات السّيف، فكانت القراءات المخالفة متعلّقة بألفاظ متكرّرة في نصوص الآيات، وهي قراءات يمكن تصنيفها ضمن القراءات اللهجيّة المرتبط اختلافُها بإعراب الحروف، كما تقدّم أن عرضنا ذلك.

وشأن القراءات شأن التّكرار الذي ارتبط بتكرّر الأفعال الأساسيَّة التي قام عليها حكم الجهاد، وهي:

الآية	المكرّر
التوبة9/5	اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ... وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ ...
التوبة9/29	قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ... وَلَا يَدِينُونَ ... مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
التوبة9/36	قاتلوا
التوبة9/73	جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
التوبة9/123	قاتلوا
الحجرات9/49	فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي
التحريم9/66	جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ

أمّا بالنسبة إلى الجهة الثانية فيظهر ممَّا تقدّم أنَّ آية السّيف تبدو كغيرها من الآيات، بل يبدو الحكم فيها بقتال المشركين منسوخاً بما تضمّنته آية الجزية من تغليب المصلحة الاقتصاديَّة. ما يعني أنَّ الذي اعتبرها منسوخة قد رأى قوَّة السّيف فيها أشدَّ حضوراً منها. لكن ما الذي ميّزها عن آية الجزية لكي تتخذ المكانة التي هي عليها في علوم القرآن، حتّى صارت لا تذكر إلا باعتبارها آية السّيف؟

تعود مركزيَّة آية السّيف في الإبستيميّة القرآنيّة إلى عدّة عوامل منها: ورودها أوَّلاً في سورة التّوبة، وثانياً ورودها في مفتتح هذه السّورة. ولكنّ أهمّ العوامل على الإطلاق يكمن في نسخها لما يقارب مئة وأربعاً وأربعين آية موزّعة على سبع وخمسين سورة، فمركز ثقلها يتمثّل في النّسخ.

ثالثاً: المنسوخ بآية السّيف وأسباب النّزول والتّكرار:

ولهذا السّبب ارتأينا أن نجلّي الشبكة العلائقيَّة التي تتنزّل فيها آية السّيف وترتبط بالنّسخ وأسباب النّزول والتّكرار بالاستناد إلى المنهج الوصفيّ الإحصائيّ الذي يمكّن الباحث من التوصّل إلى نتائج دقيقة وفق المعطيات المتوفّرة، فتسمح له تلك النّتائج أن يبني عليها استنتاجاته المعرفيَّة. وتلك النتائج ساعدنا في إحصائها مصنف **المصحف وقراءاته** الذي تبيّن لنا من خلاله أنَّ آية السيف نسخت ما يقارب 144 آية، أي ما يعادل 2.33 % من آيات المصحف. وهو ما يبدو من الأهمّيَّة بمكان أن نبحث في طبيعة هذا المنسوخ بآية السّيف. وبالرّغم من أنَّ القدامى نبّهوا إلى أنَّ آية السّيف وما شاكلها قد نسخت آيات الصفح والموادعة والعفو، فإنَّ ذلك لم يثننا عن تتبع طبيعة هذا المنسوخ من زاوية المنظومة المعرفيَّة لعلوم القرآن، ونقصد بذلك أسباب النّزول والتّكرار بالخصوص.

أمَّا أسباب النزول فقد وقفنا عليها متوفرة في 48 آية من جملة 144 آية، أي ما يعادل ثلث [33.1%] الآيات المنسوخة بآية السّيف. وقد ارتبطت أسباب نزول هذه الآيات في أغلبها بأربع فئات نرتّبها من حيث أهمّيَّة حضورها، وهي: الكفّار، ثمَّ المنافقون، ثمَّ المسلمون، ثمَّ الرّسول. أي أنَّها فئات يمكن اختزالها في فئتين: فئة رافضة للدّعوة، وفئة مؤمنة بها. فإذا صدر فعل استفزازيّ أو رفض الدّعوة من الفئة الأولى أمرَ الله الفئة الثانيةَ بالصّبر أو الاكتفاء بالتبليغ دون إكراه، وإذا صدر عن الفئة الثانية فعل عنيف أو تضمَّن دعوة إلى تسليط عنف مادّي أو معنويّ على الفئة الأولى توجَّه الخطاب القرآنيّ بلومها أو بأمرها بالكفّ عن ذلك أو بالصبر، وتذكيرها بأنّها لا تملك حقّ تقرير مصير من خالفها في الاعتقاد.

رابعاً: الحقول المعجميَّة للآيات المنسوخة بآية السيف:

وأمَّا المكرّر من المنسوخ بآية السّيف فقد توزّعت الآيات فيه إلى معاجم متعدّدة هي: معجم الإحسان والحسنى والعفو والصّفح والصّبر على أذى المخالفين والإعراض عنهم، ومعجم الإرادة العائدة إلى الذّات الإلهيّة وإلزام تلك الذات مؤسّسةَ النبوّة بوظيفتي الإبلاغ والإنذار، بالإضافة إلى ترك أمر اعتناق الدّين الجديد مفتوحاً أمام مبدأ التّخيير في الاختيار. وقد رأينا أن نعرضها معجماً معجماً حتّى نقف على منطق التّكرار الذي يقوم عليه كلّ معجم، لنبيّن أنَّه منطق يمكن تسميته بالمنطق الآليّ للنّسخ، وهو ما نودّ تفصيله في ما يلي:

1. معجم الإحسان والحسنى:

فعبارة «**التي هي أحسن**» تكررت في قوله: **(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)** [النحل 125/16]، وقوله: **(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)** [الإسراء 53/17]، وقوله: **(وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)** [العنكبوت 46/29]، وقوله: **(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ)** [المؤمنون96/23]، وقوله: **(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)** [فصلت34/41]. وهي عبارة قريبة في المعنى من قوله: **(وَقُولُوا لِلنَاسِ حُسْنًا)** [البقرة 2 /83]، كلّها نسخت بآية السّيف.

2. معجم العفو

وهو معجم ورد في عبارة «**فاعفُ**» التي تكرَّرت مرَّتين في صيغة الأمر مع ضمير المخاطب المفرد في قوله: **(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)** [المائدة 13/5]، وقوله: **(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ)** [آل عمران 159/3]، ومرَّة في صيغة الأمر مع ضمير المخاطب الجمع في قوله: **(فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا)** [البقرة 109/2]، ومرَّة في صيغة المصدر في قوله: **(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)** [الأعراف 199/7]، وقد نسختها كلّها آية السّيف.

3. معجم الصبر:

تكرّرت عبارة «فَاصْبِر» إحدى عشرة مرَّة، منها تسع مرّات، وهي قوله: **(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقّ)** الذي ورد في [الروم 60/30] و[غافر 55/40 و77]، وقوله: **(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُسُلِ)** [الأحقاف 35/46] وقوله: **(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ)** الوارد في [طه /20] و[ق 39/50] وقوله: **(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)** الذي ورد في [الطور 48/52] و[القلم 48/68] و[الإنسان 24/76] وقوله: **(فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا)** [المعارج 5/70]، كلّها نُسخت بآية السّيف.

أمَّا الموضعان الآخران فقد ذكرت العبارة مرَّة في قوله: **(فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)** [هود 49/11] ومرَّة في قوله: **(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)** [المدثّر 7/74]، وهاتان الآيتان لم تنسخهما آية السّيف لسبب مهمّ يتعلّق بأنَّ الصّبر في سورة المدثّر74 فُسّر بأنَّ الرّسول حَمَل أمراً عظيماً هو **محاربة العرب، ثمَّ العجم من بعد العرب**.[28] أي أنَّها أفادت ما أفادته آية السّيف، بل إنَّ الصّبر على حمل السّيف لمحاربة العرب والعجم فيه معنى إضافيّ لمعنى آية السّيف هو الصّبر. وقد فُسّر قوله **(فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)** [هود 49/11] تفسيراً قريباً

28- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج23، ص 16.

من هذا المعنى، وهو **الصبر على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته، وما تلقّى الرّسول من مشركي قومه، كما صبر نوح**.[29]

ولكنَّ معجم الصّبر لم يقف عند هذه الآيات، بل ذكر أيضاً في آيات أخرى منها قوله: **(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)** [آل عمران 186/3]، وقوله: **(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ)** [النحل 127/16]، وكلاهما منسوخ بآية السيف.

4. معجم الإعراض عن المخالفين:

وقد تجلّى هذا المعجم في فعل «**أَعْرِضْ**» الوارد في صيغة الأمر مع ضمير المخاطب المفرد في قوله: **(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ)** [النساء 4/ 63]، وقوله: **(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ)** [النساء 81/4]، وقوله: **(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ)** [الأنعام 68/6]، وقوله: **(وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)** [الأنعام 106/6]، وقوله: **(وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)** [الأعراف 7/ 199]، وقوله: **(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)** [الحجر 94/15]، وقوله: **(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ)** [السجدة 30/32]، وقوله: **(فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا)** [النجم 29/53]. وفي عبارة «أعرضوا» الوارد في صيغة الأمر مع ضمير المخاطب الجمع في قوله: **(وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)** [القصص 55/28]، وهي كلّها منسوخة بآية السيف.

ويرد معجم الإعراض في فعل «**تولّى**» وارداً في صيغة الأمر مع المخاطب المفرد في قوله: **(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ)** [الصافات 174/37-178]، وقوله: **(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ)** [الذاريات 54/51]، وقوله: **(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُو الدَاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ)** [القمر 6/54]، وهي أيضاً منسوخة بآية السّيف.

والمعجم ذاته يرد أيضاً في آيات متفرّقة مثل قوله: **(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا)** [الفرقان 63/25]، وقوله: **(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)** [الفرقان 25 /72]، وقوله: **(وَلَا تُطِعْ الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً)** [الأحزاب 48/33]، وقوله: **(ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)** [الأنعام 91/6]، وهي أيضاً منسوخة بآية السّيف.

5. معجم الإرادة الإلهيَّة:

ومن المعاجم المنسوخة بآية السيف معجم الإرادة الإلهيَّة التي تقوم على عدم قدرة العبد أو الرسول على تحديد مصائر الذين لا يؤمنون بالله كتحذير الله لهم في قوله: **(وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)** [آل

29- المصدر السابق، الجزء نفسه والصفحة نفسها.

عمران 28/3]، أو كتأكيد مصير الضّلال لكلّ من شاء الله أن يُضلّه مثل قوله: **(وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلا)** [النساء 88/4]، أو تأكيد مصير الهداية لكلّ من شاء الله له أن يؤمن مثل قوله: **(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)** [يونس 99/10] وقوله: **(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلا)** [الإسراء17 /54]، أو قوله: **(قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَانُ مَدًّا)** [مريم 75/19]، أو قوله: **(فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا)** [مريم19 /84]، أو قوله: **(يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)** [الزمر 23/39].

وتظهر الإرادة الإلهيَّة في أمرين آخرين هما: الحاكميّة وارتباط المصير الأخرويّ بتلك الحاكميّة، وهو ما ورد في قوله: **(وَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)** [الحج 69/22]، أو في قوله: **(أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)** [الزمر 46/39]، أو قوله: **(إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)** [الزمر 3/39] أو قوله: **(فَالحُكْمُ لِلهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ)** [غافر 40 /12]. وهي كلّها آيات منسوخة بآية السّيف نسخاً يعكس رغبة المشتغلين بالنّسخ عدم ترك أيّ مجال يمكّن المخالف من الإفلات من السّيف. حتى وإن كان ذلك الإفلات في عالم الغيب. وتتجلّى أقصى درجات محاصرة الآخر المخالف في الآخرة حين يستهدف النسخ الآيات التي أكّدت أنَّ المصير الحتمي للمخالفين لا يتحدَّد إلّا في اليوم الأخرويّ، مثلما ورد في قوله: **(فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلا)** [النساء 4 /90]، أو في قوله: **(إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)** [الأنعام 159/6]، أو في قوله: **(فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)** [يونس 20/10]، أو قوله: **(فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ)** [يونس 46/10]، أو قوله: **(قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالحَقِّ وَهُوَ الفَتَّاحُ العَلِيمُ)** [سبأ 26/34]، أو قوله: **(وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً)** [الفرقان 43/25]، أو قوله: **(اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)** [الشّورى 15/42].

وتلتقي حاكميَّة الله مع أمر الرّسول المكلّف بتبليغ الرّسالة وعدم المساس بأيّ مخالف له مساساً ماديّاً أو معنويّاً، وضرورة الانتظار ليكون الله هو أحكم الحاكمين يوم القيامة كما في قوله: **(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)** [الزخرف 83/43]، أو في قوله: **(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ)** [الدخان 44 /10]. وهي آيات نسخها العقل المفكّر بالسّيف نسخاً لحاكميَّة الله في العالمين الدنيوي والأخروي. وهي حاكميَّة تتجسَّد أيضاً في حصر مهمّة الرّسول في التبليغ والإنذار.

6. معجم إلزام مؤسَّسة النّبوَّة بوظيفتي الإبلاغ والإنذار

فإذا التزم الرَّسول بهذه الوظيفة لم يعد موكّلاً على إيمانهم أو مسؤولاً عن ذلك، إذ خاطبه بقوله: **(مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ)** [المائدة 99/5]، أو قوله: **(إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ)** [فاطر 23/35] أو قوله: **(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)** [الزمر 41/39] [الشّورى 6/42]، أو قوله: **(فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)** [النساء 80/4]، أو

قوله: **(وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ)** [الأنعام 70/6] وقوله: **(وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)** [الأنعام 107/6]، أو قوله: **(فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ)** [الشّورى 48/42]، بل أمره بقوله: **(قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)** [الأنعام 66/6]، أو قوله: **(قُلْ يَا أَيُّهَا النَاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)** [الحج 49/22]، وهي آيات كلّها وقعت تحت طائلة النّسخ بآية السّيف.

7. معجم التخيير في الاختيار:

وإذا كانت مهمَّة الرّسول قد حدّدت بالتّبليغ والإنذار، فإنَّ لمتقبّلي الدّعوة الخيار في أن يقبلوا بها أو يرفضوها، إذ **(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِينِ)** [البقرة 256/2]. وقبول الدّعوة بالإسلام أو رفضها لا يغيّر من مهمّة الرّسول، وهو ما يظهر في قوله: **(فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ)** [آل عمران 20/3] أو في قوله: **(فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)** [الأنعام 104/6] أو في قوله: **(لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)** [الأنعام 108/6] أو في قوله: **(قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)** [يونس 108/10]، أو في قوله: **(وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ)** [النمل 92/27]، أو في قوله: **(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)** [الروم 44/30]، أو قوله: **(قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)** [سبأ 25/34] **(فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ)** [الزمر 15/39]، أو قوله: **(فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)** [الزمر 41/39].

ويصل هذا الخطاب إلى أبلغ تجلّياته في ترك أمر الدّين أمراً اختياريًّا شخصيًّا حين نَفْي وقوع الضّرر على الفئة المهتدية بضلال غيرها من الفئات، وهو ما ورد في قوله: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)** [المائدة 105/5]، أو في قوله: **(قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَسُولِ إِلاَّ البَلَاغُ المُبِينُ)** [النور 54/24]، ولكنَّ المفكّر بالسّيف يرى أنَّ هذه الآيات كلّها منسوخة بآية السّيف.

خامساً: «التّفكير» بالسّيف: منطقه الدّاخلي وكيفيَّة اشتغاله

لقد تعمَّدنا استحضار جلّ الآيات المنسوخة بآية السّيف، وحاولنا أن نجلّي طبيعة العلاقة بينها وبين ما نسخ، فتبيّن لنا أنَّ آية السّيف هي من الآيات المحوريَّة في ما اتّصل بنصّ المصحف من علوم القرآن. وتكمن أهمّيتها في الشبكة العلائقيَّة التي ربطت بينها ربطاً مباشراً عبر النّسخ، أو غير مباشر عبر التّكرار.

وبالرّغم من أنَّ التّكرار لم يكن مبحثاً مهمَّاً من مباحث علوم القرآن، فإنَّه يكشف كشفاً شديد الوضوح أنَّ علم الناسخ والمنسوخ ضمن الإبستيميَّة القرآنية القديمة علم زائف. لأنَّ المشتغلين به لم يلتزموا بالمبادئ المعرفيَّة التي لا يستقيم النسخ علماً إلا بها. ويكفي أن نذكّر بأنَّ آية السيف لا سبب نزول يتعلّق بها، وهي مع ذلك ناسخة لـ 48 آية تعلّقت بها أسباب نزول. ويظهر زيف علم الناسخ والمنسوخ في طريقة اشتغال المفكّر بالسّيف. ويجب أن نشير هنا إلى أنَّ «المفكّر» بالسّيف ليس ذاتاً فرداً يتمتّع بملكة التّفكير بالمعنى الحقيقي للتّفكير. فإذا جاز لنا أن نطلق هذه التسمية على ذات ما بالاستناد إلى ما تقدّم من الأفهام المتعلقة بهذه الآية والتي تراكمت عبر الزّمن، فإنَّ تلك الذّات ليست إلا الذّات الجماعيَّة التي تكوَّنت صورتها من خلال ما وقفنا عليه من آراء إزاء تلك الآية. وببساطة فإنَّ تلك الذّات الجماعيَّة هي رأي كلّ فرد من الأفراد الذين أبْدَوْا مواقفهم من آية السّيف. وإزاء تلك المواقف المتضاربة يتجلّى الاتّجاه العقدي الذي يمثّل وعي الذّات الجماعي. وإذن فالوعي الجمعيّ بآية السّيف هو وعي يتجلّى في مجموعة من المقوّمات أهمُّها تجلّيه في حضور الوعي لدى كلّ فرد من أفراد الجماعة، كما يتجلّى أيضاً في وعي الجماعة بذاتها ولذاتها باعتبارها كياناً مستقلاً عن غيره من الكيانات العقديَّة الأخرى وقائماً بذاته. ويحدّد دارسو الاجتماع الإنساني أنَّ هذا النّوع من الوعي يكون مقدّمة ضروريَّة لممارسة الضَّغط على الأفراد والجماعات. وهذا الضّغط ليس إلا ما تنتجه الجماعة من قيم رمزيَّة تتلخَّص في قوَّة السّيف التي لا يمكن أن تنتج إلَّا نمطاً في التفكير هو «التّفكير» بالسَّيف.

1. «المفكّر» بالسيف والذّات الإلهيَّة:

تتجلّى الذّات الإلهيَّة في الشّبكة العلائقيَّة المترابطة بآية السّيف من آيات قرآنيَّة منسوخة أو مكرّرة في تجلّيين: تجلّيها في الإرادة الإلهيَّة التي اضطلعت بتقرير مصير الإنسان فإذا أرشدته إلى طريق الهداية فلا مُضلّ له، وإذا أضلّته فلا مرشد له، في ممارسة مطلقة للمشيئة الإلهيَّة. أمّا «**المفكّر**» بالسّيف فلم تكن تعنيه هذه المشيئة. لأنَّه إذا احترم وجودها انقاد إليها، وبالانقياد إليها صار غير معنيّ بمصائر النّاس. لكنَّه باسْم الجهاد المقدَّس يشرّع بآية السّيف لينوب عن الله في تحديد مصائر الخلق.

وتتجلّى الذّات الإلهيَّة أيضاً في تحديد وظيفة النبوّة ـمثلما بيّنا سابقاًـ في التبليغ والإنذار. فإذا كان الرّسول مصطفى من الله ومؤهّلاً للامتثال لأوامر الله فإنَّ «المفكّر» بالسيف قد أبطل تبليغ الرّسالة بالتّبشير

والإنذار، ولم يتبقَّ لتبليغها إلَّا السّيف، وقد اعتبر بعض الدّارسين أنَّ القول بالنّسخ في مثل هذه الآيات إساءة أدب على الله.[30]

2. رمزيَّة السّيف وضرورة إرساء ثقافة اللَّاعنف:

هكذا إذن قطع «المفكّر» بالسّيف مع العفو والصّبر والتّسامح والتّبليغ والإنذار وعدم الدّعوة إلى الدّين بالإكراه، بل قطع مع الحاكميَّة الإلهيَّة لتحلّ محلّ كلّ ذلك حاكميةُ «المفكّر» بالسّيف الذي اتّخذ من مفهومه للجهاد المطلق مطيَّة لفرض ثقافة العنف المقدَّس، وفرض نفسه باعتباره «المفكّر» بالسّيف المتألّه، لذلك لا غرابة في أن نقف اليوم على دعوة كبير فلاسفة اللَّاعنف جون ماري موللر (Jean-Marie Muller) إلى **ضرورة نزع سلاح الآلهة**.[31] وإذا كان الفيلسوف الفرنسي قد أطلق دعوته تلك على أسس فلسفيَّة قائمة على تأمُّل قيم التّسامح في الدّيانات التوحيديَّة الثلاث (اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام)، فإنَّ قاسماً مشتركاً من العنف ذاته يجمع بين هذه الدّيانات هو السّيف ذاته الذي سمّيت باسْمه آية السّيف. غير أنَّ القاسم المشترك الأكبر هو قيم التّسامح ذاتها التي إذا تأمّلنا حضورها في الشبكة العلائقيَّة التي قامت عليها آية السّيف ضمن الإبستيميَّة القرآنيَّة القديمة، تبيّن لنا أنَّها الغالبة من زاوية منطق قوّة الحضور وقوّة القيم الكونيَّة ذاتها التي تقوم عليها إنسانيَّة الإنسان لا قوّة السّيف. فإذا كانت آيات السّيف سبعاً، فإنَّ هذا العدد لا يكاد يساوي نسبة 5% من الآيات االدّاعية إلى قيم التّسامح والحريَّة المنسوخة بها نسخاً زائفاً.

إنَّ هذه النسبة [أي النسبة المئويَّة لآيات السّيف] تختزل الجذور الحقيقيَّة للإسلام السّياسيّ من جهتين على الأقلّ: من جهة المنحى التّسلطيّ الذي اتبعتّه كلُّ سلطة قامت على أساس دينيّ. لأنَّ ذلك الأساس الدينيّ سيدفعه من جهة ثانية إلى التّعامل مع الآخر بازدواجيَّة في الخطاب الذي يتميّز به كلّ «مفكّر» بالسّيف يروم إبراز نفسه كشخص منسجم مع قيم الحداثة ومنها الدّيمقراطيَّة. فتكون سلوكاته السّياسيَّة مشابهة تكاد تصل إلى حدّ التّطابق لتاريخ الجهاد كما تلخّصه الإبستيميَّة القرآنيَّة القديمة في تعاملها مع آية السّيف. فأوَّل فعل يقتضيه المقام هو الدّعوة إلى التّسامح والحرّيَّة والحقّ في ممارسة التّديّن أو اللَّاتدين ممارسة حرَّة، ثمَّ التدرُّج إلى الإنذار الشّديد ثانياً، ثمَّ الالتجاء إلى الدّفاع عن النّفس ثالثاً، ثمَّ يكون الفعل التسلّطيّ الأخير إذا صار «المفكّر» بالسيف في منعة من أمره. هكذا يتنزل الجهاد في الراهن من خلال فهم المنظومة المعرفيَّة التي أنتجت جهاد الأمس.

30- مقاتل بن سليمان (تـ 150هـ) **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيق عبد الله محمود شحاته، ط1، دار إحياء التراث J بيروت، 1423 هـ.ج5، ص 167.

31- استعمل الفيلسوف الفرنسي جون ماري مولر عبارة نزع سلاح الآلهة عنواناً لإحدى كتبه التي يؤسّس فيها إلى فلسفة اللاعنف، انظر في هذا الصدد:

Jean-Marie Muller, **Désarmer les dieux, Le christianisme et l'islam au regard de l'exigence de non-violence**, Le Relié Poche, 2010.

خاتمة:

يمكن القول في ختام هذا المقال: إنَّ تتبُّع آية السيف في المنظومة الفكريَّة المشتغلة بعلوم القرآن مكَّننا من الوقوف على الوجه الحقيقي لمقولة الجهاد في مضمونها القديم. وليس المضمون المعاصر لتلك المقولة إلا امتداداً لنمط المعرفة السائدة في الوعي الجمعي الذي يمثل جميع أفراد المجموعة والمصالح والقيم الثقافيَّة التي تربط بينها. وهي ثقافة مؤسَّسة على العنف، تستمدُّ قداستها ومشروعيتها من فهمها الخاص للنصّ الديني، بالرغم من أنَّ خطاب العنف لا يمثل إلا نسبة ضئيلة جداً مقارنة بثقافة التسامح. وإذا كانت التربة القديمة بقيمها القبليَّة والفهم المحدود لقيم الرسالة المحمديَّة الإنسانيَّة هي التي ساهمت مساهمة فعَّالة في هيمنة خطاب العنف، فلمَ لم يحن الوقت بعدُ لخلق تربة جديدة تقوم بنزع سلاح المفكّر بالسيف[32] لتعلو قيمُ التسامح بدلَ خطابه؟

32- بهذه التسمية نقترح تعديل عبارة الفيلسوف الفرنسي التي وسم بها كتابه المذكور أعلاه.

قائمة المصادر والمراجع

1. المصادر مرتَّبة ترتيباً تاريخيًّاً:

- **القرآن الكريم** برواية حفص عن عاصم.
- محمَّد بن مسلم بن عبد الله بن شِهَاب الزهري (تـ 124هـ)، **الناسخ والمنسوخ**، تحقيق حاتم صالح الضامن، ط3، مؤسَّسة الرسالة، 1998.
- مقاتل بن سليمان (تـ 150هـ) **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيق عبد الله محمود شحاته، ط1، دار إحياء التراث ـ بيروت، 1423 هـ.
- أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (تـ 207هـ)، **معاني القرآن**، تحقيق جماعي، ط1، دار المصريَّة للتأليف والترجمة، مصر، د.ت.
- علي بن إبراهيم القمّي (تـ 217هـ)، **تفسير القمي**، تحقيق طيب الموسوي الجزائري، ط3، دار الكتاب للطباعة والنشر، قم ـ إيران، 1404 هـ.
- محمَّد بن جرير أبو جعفر الطبري (تـ 310هـ)، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق أحمد محمَّد شاكر، ط1، مؤسَّسة الرسالة، 2000.
- عبد الرحمن بن محمَّد بن أبي حاتم (تـ 327هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق أسعد محمَّد الطيب، ط3، مكتبة نزار مصطفى الباز ـ المملكة العربيَّة السعوديَّة، 1419 هـ.
- أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمَّد (المتوفى: 338هـ) **الناسخ والمنسوخ**، تحقيق محمَّد عبد السلام محمَّد، ط1، مكتبة الفلاح ـ الكويت، 1408هـ.
- ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي (تـ542هـ)، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمَّد، ط1، دار الكتب العلميَّة، لبنان، 1993.
- فخر الدين الرازي (تـ 606هـ)، **تفسير مفاتيح الغيب**، ط3، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، 1420 هـ.
- أبو عبد الله محمَّد بن أحمد شمس الدين القرطبي (تـ 671هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، 1964.
- أبو حيان الأندلسي، محمَّد بن يوسف (تـ745هـ)، **تفسير البحر المحيط**، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 2001.
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (تـ 774هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق محمَّد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلميَّة، منشورات محمَّد علي بيضون ـ بيروت، 1419 هـ.
- جلال الدين السيوطي (تـ 911هـ) **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، 1974.
- محمَّد باقر المجلسي (تـ1111هـ)، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، ط2، مؤسَّسة الوفاء، بيروت، لبنان، 1983.
- محمَّد الطاهر بن عاشور (تـ 1393هـ)، **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**، الدار التونسيَّة للنشر ـ تونس، 1984 هـ.
- مؤلف مجهول، **كتاب المباني في نظم المعاني ضمن مقدّمتين في علوم القرآن**، تحقيق آرثر جيفري، ط2، القاهرة، 1972.

2. المراجع باللسان العربي مرتبة ترتيباً ألفبائيًّا:

- الجمل، بسام، **أسباب النزول**، ط1، المركز الثقافي العربي ـ المؤسّسة العربيَّة للتحديث الفكري، بيروت ـ الدار البيضاء، 2005.
- الحكيم، محمَّد باقر، **علوم القرآن**، ط3، مجمع الفكر الاسلامي، قم، 1417 هـ.
- الخوئي، أبو القاسم الموسوي، **البيان في تفسير القرآن**، ط4، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، 1975.
- صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.
- قمودي، عبد الباسط، **الناسخ والمنسوخ علماً من علوم القرآن**، أطروحة دكتوراه مرقونة بكليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، سوسة ـ تونس 2014.
- المصحف وقراءاته، تأليف مجموعة من الباحثين بإشراف عبد المجيد الشرفي، ط1، مؤسّسة مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، المغرب، 2016.

3. المراجع باللسان الأجنبي مرتبة ترتيبا ألفبائيًّا:

- **Abdennour Bidar, Lettre ouverte au monde musulman, in:** La revue du Réseau international pour une économie humaine Développement et civilisations, **N°426**, année 2015, p1-4.
- Jeffery, Materials, for the history of the text of the Qur'an, the old codices. Leiden,1937
- René Guénon, Symboles de la Science Sacrée (Sayful-Islam: Publié dans les Cahiers du Sud, numéro spécial 1947: L'Islam et l'Occident), Recueil posthume, p134-137.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018